معنى الثقافة[1]

أحييكم فى دراكم العامرة ، ويروقنى أن أعتبرها تحية سابقة أستأنفها فى هذه المناسبة الحاضرة . فقد سمعت بكم وبداركم قبل أن أراكم ، وخاطبتكم بكتبى قبل أن أخاطبكم بلسانى ، ولاقيتكم فى شعاب الفكر والمطالعة قبل أن ألقاكم بين الجدران فى فناء واحد . فأحرى بتحية اليوم أن تعد تجديد تحيات سابقات ، وأن ألقاكم بها كأننى كنت معكم أمس وسأظل بينكم غدًا ، ما وصلت بيننا صلات البحث والثقافة .

وقد سألت نفسى فيم أتحدث إلى حضراتكم الليلة ؟ والموضوعات متشعبة والميول متعددة والدار حافلة بأصداء الأحاديث التى ترددت من قبل فى شتى المطالب ومختلف الأغراض. فلم يطل سؤالى لنفسى فى اختيار الموضوع حتى هدانى إليه عنوان الدار أقرب هداية : دار الثقافة ... فليكن الموضوع إذن فى الثقافة ومعناها ، وهو موضوع واحد له شعاب لا نهاية لها ، ولو تكلم فيه ألف متكلم واستمع له ما لا يحصى من السامعين .

---

(١) ألقيت فى نادى الثقافة بالخرطوم سنة ١٩٤٢ .

فخلاصة ما أصف به الثقافة أنها هى ترويض الوظائف الإنسانية على استيفاء نصيبها من الحياة الفضلى : وما أكثر الوظائف الإنسانية ! وما أعظم الأنصبة فى الحياة ! وما أعجب الوسائل التى تتوسل بها إلى استيفاء كل نصيب منها .

هذا عالم ليس بالمنتهى فى عصر ولا مكان ، وليس بالمحصور ولا بالذى يحسن أن يحصره الحاصر . فوظائف الحياة أكثر من أن تحصر وأعمق من أن تسمى بالأسماء . وإنما أنا مشير منها إلى الجانب الذى أراه ، فإذا وافقت إشارتى موقع النظر منكم فقد صنعت شيئًا يستحق مشقة الهنيهات التى يقضى فيها هذا الصنيع .

نحن نعطى الحياة كما نعطى مزرعة مهيأة للغرس والتثمير . منا من يستصلح بعضها ويهمل أكثرها ، ومنا من يستصلحها كلها ولا يزرع فيها خير الثمار التى هى صالحة لإنباتها ، ومنا من يزرع فيها خير الثمار ولا يستوفى محصولها فى أكرم أعوامها ، ومنا من يستوفى المحصول ولا يتجه به إلى السوق التى تعم فيها منافعه وتكثر فيها غنائمه وأرباحه .

والثقافة هى الصناعة التى نستوفى بها ثمرات هذه المزرعة الوحيدة التى لا نملك مزرعة غيرها ، ونعنى بها مزرعة الحياة . هى الصناعة التى تعلمنا كيف نزرع حياتنا جميعًا ، وكيف

نختار لها أحسن ثمارها ، وكيف نستخرج منها أوفى بركاتها ... أو هى الصناعة التى نستحيى بها الحياة .

ونحاول عبثًا إذا حاولنا هنا السرد والاستقصاء فى كل مطلب من مطالب الحياة ، ولكننا نشير كما أسلفنا بضع إشارات نرجو أن تعيروها مكان النظر فى أعينكم ، وفى هذا الكفاية من حديث واحد ، بل من عدة أحاديث .

وعلى هذا نقسم مطالب الثقافة إلى ثلاثة عناوين : مطالب الحس ، ومطالب الحركة ، ومطالب التفكير .

فالحس عند بعض الناس أمر سهل بالغ فى السهولة ... ما على الإنسان إلا أن يترك نفسه على علاتها والحس يأتى إليه طواعية بغير استدعاء ولا محاولة .

وبعض الناس هؤلاء مخطئون ، بل جد مخطئين .

فالحس أحوج شىء إلى التعلم والرياضة ، ومن أراد زيادة فى نصيب الحس فقد أراد زيادة فى نصيب الحياة بأسرها ، أو فى التموين الذى تتغذى به الحياة على أقل تقدير .. وذلك شىء كبير ، وشىء كذلك عسير .

ولهذا ينبغى أن نقرر أن مقياس الحس الصحيح هو مجاوبة المؤثرات المحسوسة ، وليس هو مجرد التلقى لها أو « أخذ خبر » بحدوثها كما يقولون .

كيف نجاوب المؤثرات ؟

هذا هو مقياس الحس الصحيح .

أما كيف نتلقاها « ونأخذ خبرًا بها » فليس ذلك بالمقياس الذى يعرف منه نصيب الإنسان فى الإحساس .

قد يقال لرجل : إن السيل مقترب من بيتك . فإذا علم معنى كلمة السيل ومعنى كلمة الاقتراب ومعنى كلمة البيت فقد علم الخبر علمًا قاموسيًّا لا يتعدى كثيرًا علم المذياع بما يتلقاه ، أو علم الأداة التلغرافية بما يرسل إليها من الشرطات والنقاط . ومعظم الناس يظنون أن هذا هو الإحساس كل الإحساس ، ويعجبون حين يقال لهم إن إحساسهم بالحياة ناقص وأن تعبيرهم عنها ناقص من أجل ذلك ، وأن مجاوبتهم لها ناقصة أيضًا بمقدار نقص الإحساس ونقص التعبير .

إلا أن المجاوبة التى تبين لنا عمق الشعور وقدرة الوظائف الحية على التلبية وعلى استيعاب المحسوسات هى التى نفهم منها أن السامع قد أحس وقد وعى وقد اشتمل على الأداة الصالحة لتلقى المؤثرات من حوله ، وبغير هذه الأداة لا فائدة من الفهم القاموسى أو الفهم التلغرافى الذى يعتز به بعض الناس ويحارون إذا قيل لهم : زيدوا نصيبكم من الإحساس فليس هذا هو الإحساس .

ولست أمل تقرير هذه الحقيقة التى يتوقف عليها فهم جميع الحقائق التى تعوزنا نحن الشرقيين .

لست أمل تصحيح الخطأ الشائع بيننا نحن الشرقيين إننا أهل حس وأهل عاطفة وأهل خيال ، فلا حاجة بنا إلى المزيد من هذه « الكماليات الرخيصة » كما يزعمون .

كلا . ما نحن بمستوفين نصيبنا من الحس ولا من العاطفة ولا من الخيال .

فألف ليلة وليلة كلها خيال رخيص لا يغنينا عن استيفاء ملكات التصور والإحاطة بالمحسوسات : ألف ليلة واقع فى انتظار التنفيذ والإنجاز وكل ما فيها من قصور ومن حسان ومن لذة فى المطاعم والشهوات إنما هو واقع مما نراه كل يوم ... إنما هو حس قاموسى لما يتكرر فى الأنظار والأسماع بغير حاجة إلى ابتكار أو اختراع ، ليس هذا هو الخيال الذى يصور لنا الحقائق ويجلوها فى صور الفن والجمال . بل هو حلم الجوعان بسوق الخبز كما يقولون : ليس فى الخبز هنا من خيال إلا أنه غير موجود ، وأنه ما دام كذلك فهو حلم من الأحلام .

هل هذا هو الخيال الذى نحن محتاجون إليه ؟

كلا . فهذا خيال يغنينا عنه الواقع الحرفى الذى لا معنى لتمنيه إلا عدم وجوده كما أسلفنا . وهو إذا وجد لا يزيدنا إدراكا للواقع ولا تغلغلا فى بواطنه ولا تجميلا لمرآه .

وكذلك العاطفة التى نغالى بشيوعها بيننا واستغراقها لحواسنا الظاهرة والباطنة ويخيل إلينا أننا فى حاجة إلى التخفيف منها ،

وأحوج ما نحتاج إليه فى الحقيقة هو زيادتها ثم زيادتها إلى أقصى ما تستطاع الزيادة .

لأن العاطفة هى محرك الحياة وهى باعثها وهى المسوغ الذى يسوغ لنا المحافظة عليها والمنافسة فيها ، والبلوغ بها إلى مدى المنافسة من التقدم والظفر والسيادة .

تعلمون حضراتكم حكاية الجندى التركى العنيد الذى حاول أن يشق البطيخة بالمقص فنهاه الأمير وأراه أنها لا تفتح به ، وإن كان قاطعًا ، ولكنها تفتح بالسكين !

فأصر الجندى على المقص ، وأصر الأمير على السكين حتى ضاق ذرعًا بجنديه العنيد وأمر به أن يقذف فى لجة الماء فما زال ينادى وهو على وجه الماء : بالمقص تفتح البطيخة ، بالمقص وليس بالسكين . نعم لا تفتح إلا بالمقص ولن تفتح أبدًا بالسكين حتى غاص فى الماء وأوشك أن يحتويه القاع ، فرفع يده إلى السماء لا ليبسطها بالدعاء وهو مشرف على الفناء . بل ليفتح أصبعيه على النحو الذى يفتح به المقص ، ويعلن فى اللحظة الأخيرة من حياته أن البطيخة بالمقص وحده تفتح .. وهيهات أن تفتح بالسكين !

حضرات الإخوان !

أرجو ألا أتمثل لكم فى صورة ذلك الجندى إذا قلت لكم إنها هى العاطفة القوية التى نحتاج إليها ، وليست العاطفة القوية

بالفضول الذى نستغنى عنه ، ونود لو أراحنا الله من بقاياه .

فمنذ سنوات دار النقاش بينى وبين الأستاذ الزهاوى رحمه الله حول هذا الموضوع ، فغنى هو قصيدته للعقل وغنيت أنا قصيدتى للعاطفة ، وإن كنت لا أعنى بذلك إنكار العقل وإنكار حاجتنا نحن الشرقيين إليه .

وكانت أيامها أيام الطيار الأمريكى لندبرج وقفزته الجريئة فى عبور المحيط الأطلسى فى أربع وعشرين ساعة . فراح الأستاذ الزهاوى يسألنى : بماذا عبر لندبرج المحيط الزاخر ! بالعقل أم بالعاطفة !!

قلت : بل بالعاطفة ... وبالعاطفة أيضًا اخترعت الطيارة وبالعاطفة جاشت النفوس حتى ضاقت بها آفاق الحياة فنهضت نهضتها وطمحت طموحها ، واخترعت ما اخترعت من الطيارات والسيارات وغيرها من المخترعات .

وأين هو العقل الذى يقول لفتى فى سن لندبرج : قم يا هذا فجازف بحياتك ومصيرك من أجل تجربة واحدة فى عبور المحيط ؟

إن ابتسامة واحدة ينتظرها لندبرج من إنسان يحبه أو يعجب به أو يود أن يكون فخرًا له ، لقد أقنعته سلفا بعبور المحيط الذى لا تقنعه بعبوره ملايين العقول ، وما مكان العقل هنا إلا مكان المنفذ أو الخادم الذى أمره السيد فأطاع . ولن يطلب

الخادم أبدًا فوق الذى يطلبه السيد بحال من الأحوال .

وأود لو تكشفت لى بصائركم الآن فأرى أننى قد ابتعدت فيها من صورة الجندى العنيد ومقصه الذى أشار إليه وهو يودع الحياة . فقد أظل إلى ختام حياتى أقول لمن يسألنى : بم يتقدم الشرقى أبالعاطفة أم بالعقل ؟ فأقول بل بالعاطفة قبل العقل ... ولا أراهم ينصفون العقل نفسه إذا وضعوا فى يدى مقصًّا كمقص ذلك الجندى وهو غارق فى لجة الماء !

إننا لا نقيس العاطفة بمقياس أصدق من هذين المقياسين الخالدين وهما الحب والموت .

فالحب يعلم من لا يعلم كيف يحب .

والموت يعلم من لا يعلم كيف يحزن .

فإذا شئنا أن نقيس حظنا من العاطفة بواحد من هذين القياسين الخالدين فماذا نرى وماذا نسمع ؟

نرى الحب عندنا يضعف الحياة ولا يضاعفها ، ونرى غناء المحبين عندنا كأنين المحتضر موزعًا بين الشكوى والبكاء واصطناع الرقة العمياء ، وكله يجرى على نمط واحد وصورة واحدة فى جميع الأغانى وجميع الأسماع . ثم هؤلاء السامعون المتيمون المفروض فيهم أنهم يستمعون الغناء وهو قبل كل شىء تناسق الأصوات والأصداء كيف يسمعون وكيف يشعرون بالغزل والنشيد ؟ إنهم ليخرجون من الوصلة الموسيقية – وقد يخرجون

فى أثنائها - إلى زعيق وصياح فيهما كل ما أودع الله الأصوات من شذوذ ونشوز ومنافاة لروح الموسيقى والغناء .

ليس هذا بفن وليس هذا بغزل وليس هذا بحب . إنما هو هياج حس يختلط كما يختلط كل هياج . ولو كان حبًّا صادقا لما جرى على وتيرة واحدة كما يجرى كل شىء متكلف مصطنع ملفق قائم على التظاهر والادعاء . فإن الحب المطبوع يختلف أربع مرات أو خمس مرات فى حياة الإنسان الواحد حسب اختلاف سنه واختلاف الشخصية التى يتعلق بها هواه واختلاف الأسباب التى بعثت فيه هذا الهوى واختلاف القدرة على التعبير من حين إلى حين . فيتعدد الغزل وتتعدد معانى الغناء وتتعدد الصور النفسية التى يوجهها السماع .

وهذا كله بعيد . جد بعيد . نعم بعيد إلى أقصى مدى البعد من الحب الذى تمثله لنا الأغانى والألحان ويمثله لنا السامعون فى مجالس الغناء .

أما الموت وهو أكبر معلم للحزن فهل نقول إنه علمنا الحزن ونحن لا نزال نحتاج إلى نائحة فى المآتم تبكى لنا قبل أن نبكى على أمواتنا ؟

هل نقول إنه علمنا الحزن ونحن لا نطيق الانفراد محزونين ؟

هل نقول إنه علمنا الحزن ونحن من ضيق النفوس بحيث لا تتسع لأحزاننا ولا نزال نعبر عنها بشق الجيوب ولطم

الخدود ؟ كأن الحزن يفاجئ منا قلوبًا لا تقدر على احتوائه ولا تدرى كيف تصبح قلوبًا فتسلم حزنها إلى الجوارح والعضلات لتحزن لها بالنيابة عنها !

هذان هما الحب والموت أقوى ما عرف الإنسان من إحساس ومن عاطفة ، وهذا هو النحو الذى نستجيب به لأطغى ما يطغى على بنية الحى فى أقوى مراحل الحياة ، فهل نعتقد - وهذا نصيبنا من العاطفة فيها - أننا أسرفنا فى العطف واحتجنا إلى القصد والتخفيف من هذا الترف الذى لا نفتقر إليه ؟

ألا إن الحق الذى لا مراء فيه ولا يطول فيه المراء أننا فى العاطفة لفقراء جد فقراء ، وأن الذى نحسبنا أغنياء به إنما هو عملة زائفة قليلة الغناء ، كأنما هى دنانير الحلوى والنحاس إلى جانب دنانير الذهب وأوراق اليسر والثراء .

وننتقل من هذه الكلمة المجملة على ثقافة الحس إلى كلمة مجملة مثلها عن ثقافة الحركة ، ويقال فيها مثل ما يقال عن ملكات الحس .

بل لعلها ولعل آثارها أظهر للعيان وأقرب إلى التقدير من الملكات الحسية التى ينطوى الكثير منها فى داخل الوجدان .

فقابلية الحركة فى البنية الإنسانية شىء لا نبالغ إذا قلنا إنه بلا انتهاء ، أو إنه على الأقل عسير التسجيل والإحصاء .

وقد يظهر لنا مقدار الثروة المكنونة فى البنية الإنسانية من

ملكات الحركة إذا التفتنا إلى بضعة أمثال قليلة مما نشاهده فى كل يوم ولا يعسر علينا أن نشاهد الأمثلة الكثيرة عليها حيث أردناها .

فهناك مثلا لاعب البلياردو وقدرته على أن يوجه الكرات الثلاث مائتى مرة - أو أكثر من مائتى مرة فى بعض الأحيان - إلى حيث يشاء كأنه يجذبها بخيوط تميل بها وتعتدل فى كل حركة وكل اتجاه .

فمقدار شعرة واحدة دون المكان الواجب أن يضع فيه العصا تفسد اللعبة من البداية ولا يتأتى مع هذا الخطأ اليسير أن يلامس الأكر مرة واحدة فضلا عن مئات المرات .

كذلك مقدار شعرة واحدة فى اختيار الاتجاه وموقع النظر قد يفسد اللعبة مثل هذا الإفساد .

وما يقال عن الاتجاه وموضع لمس العصا يقال عن قوة الدفعة التى يستخدمها فى تحريك الكرة الأولى . فإن همسة واحدة فى قوة الدفع تنقص أو تزيد تغير النتيجة من النجاح إلى الإخفاق .

ويتبع هذا جميعه ضبط اللاعب لموقع قدميه وانحناء صدره ومد ذراعيه ، إلى غير ذلك مما يتناول نظام الحركة فى البنية كلها على اختلاف أعضائها وأعصابها . وقد يخطئ أدق الآلات فى قياس المسافة أو القوة أو الوجهة أو الضوابط العصبية اللازمة للإصابة فى هذه اللعبة . ولكن البنية الإنسانية تحتوى فيها من مقاييس

الضبط ، مع حسن المرانة ما يعجز عنه أدق الآلات . وتتمكن منها المرانة حتى تبدو منها الحركة المقصودة كلها ارتجالاً لا مجهود فيه .

يشبه هذا المثال مثال الحربة التى يتعود أبناء البداوة أن يرسلوها إلى الهدف من بعيد أو قريب ، فلا يخطئون مع حسن المرانة إلا فى النادر القليل .

كل مسافة لها طريقتها المكافئة لها فى وقفة الرامى وفى نظرته وفى الزاوية التى تكون بين ذراعه وجسمه ، وفى قوة الدفعة التى سلطها على الحربة لتبلغ من رمية واحدة إلى حيث يريد لها البلوغ ، وتصدر هذه التوفيقات والضوابط جميعًا عفو الساعة ولا تزال تختلف من هنيهة إلى هنيهة كلما تغير موقف الرامى أو الرمية . وهو استعداد مستكن فى البنية الإنسانية لا نستخدمه ولا نستخدم أمثاله كأنه ليس من حقنا أو من ثروتنا الحيوية التى لا ثروة لنا فى العالم سواها . حتى ليصح أن يقال إن الإنسان يهمل من ملكات الحركة فيه على هذا الاعتبار تسعة أعشار ما عنده من وسائلها ومهيئاتها .

ويشبه هذين المثالين مثال رأيته فى بلدى أسوان ولعلكم رأيتموه أو ترون نظائره فى كل مكان .

رجل أكتع أو قطيع لا يستخدم يديه ولكنه يستخدم أصابع رجليه فى قدح الثقاب وصنع القهوة وإمساك القلم ومعظم ما

يصنعه الناس بأصابع اليدين . وقد تنقضى حياة الملايين من الناس دون أن ينكشف لهم أن أصابع الرجل قادرة على تدبير مثل هذا الصنيع .

فأين تذهب هذه الملكات جميعًا ؟ وماذا ينبغى أن نفهم من هذا وأشباهه ؟

إن المعنى القريب الذى ينبغى أن نفهمه منها أننا أصحاب ثروة معطلة لا نستفيد بها ولا نشعر بالفرق بين حرماننا منها ووجودها لدينا .

ويسرنى أن أقول إن نصيب الشرقيين من هذه القابلية – قابلية الحركة – عظيم وأنهم قادرون على الاستفادة بها كلما أرادوا ذلك كأحسن ما يستفيد الإنسان من نشاطه ومجهوده .

تدل على ذلك الألعاب الرياضية التى ينجحون فيها وتدل على ذلك المخترعات الحديثة التى يحسنون تناولها وتسييرها بغير عناء كبير ، وتدل على ذلك صناعاتهم اليدوية الفردية التى قلما يسبقهم فيها سابق من الأمم الأخرى ، وفى ذلك عزاء حسن وأمل كبير .

أما التفكير فيخيل إلى أن الحصة المهجورة أو المتروكة فى حساب كل إنسان من كل أمة على اختلاف الأمم لا يقدم كثيرًا ولا يؤخر كثيرًا فى تقرير هذه الحقيقة .

فما من إنسان يحاسب نفسه يومًا واحدًا على ما يصنعه بالفكر

وما يصنعه بحكم العادة والمجاراة إلا تبين له أن التفكير هو أول شيء يستغنى عنه إذا أريد منه أن يستغنى عن بعض الملكات .

لماذا تصنع هذا ؟

لأنه واجب !!

ولماذا هو واجب ؟

لأننى تعودته ، والناس من قبلى قد تعودوه !

ولماذا تعودته ؟ ولماذا لا تفكر من حين إلى حين فى تغيير هذه العادة أو تنقيحها أو إعادة ضبطها والتوفيق بينها وبين الجديد من الطوارئ والمناسبات !

هنا الحيرة كل الحيرة ، والاضطراب كل الاضطراب . فمن الناس من لا يفكر فى أسباب عاداته وأسباب عادات الآخرين ، ومنهم من يفكر فيها ويرى أن المشقة فى احتمالها أهون من المشقة فى تغييرها عنده وعند غيره ... ومن الناس من يتصدى للتغيير فيخفق فيصبح عبرة للمعتبرين ، أو ينجح فيفتح الباب لنمط جديد من العادات والمألوفات لا يلبث طويلا حتى يخلف النمط القديم فى الجمود والاستقرار .

ولا أغالى إذا قلت إن الأمم بعد الأمم ، والأجيال بعد الأجيال ، ترسل نفسها فى التيار مئات السنين ولا تستشير الفكر كما تستشير الأمواج التى تحملها إلى حيث تشاء . فلو قلت لهم : اقذفوا هنا على الشاطئ ما أنتم مستغنون عنه فى

هذه الرحلة الطويلة لقذفوا بحقيبة الفكر دفعة واحدة بغير تفكير كثير ولا قليل .

والعادة ولا ريب حسنة من حسنات الحياة الإنسانية لأنها تقتصد لنا فى المجهودات الذهنية والنفسية فلا نبتدئ كل يوم باختراع الشيء الواحد ثم نعود إلى اختراعه عدة مرات .

وهذا هو القصد المشكور .

وهنا حسنة العادات المحمودة .

ولكن العادة إذا بلغ من تحكمها أن تشل الاختراع وتبطل المراجعة وتسلب الفكر مرونته المتجددة فهى إفلاس لا قصد فيه .

إنما تصبح العادة خيرًا محضًا إذا ملكها الإنسان ولم تملكه ، وإذا أبقت له فكره وقدرته على الاستقلال بالنظر ولم تجعله كالآلة المسخرة التى تنقاد أبدًا وتأبى أن تقود نفسها أو تقود غيرها من باب أولى .

والثقافة المثلى للملكات الفكرية هى أن نريحها من الاختراع المتجدد فى غير ضرورة ، وأن نحفظ لها - مع ذلك - ملكة الاختراع عند الضرورة . فتكون لنا عادات وتكون لنا أفكار ولا يقع التناقض بين الأمرين فنلغى أفكارنا بعاداتنا أو نختلق لكل يوم عاداته كأننا نعيش يوما واحدًا نكرره على نمط واحد فنخسر ولا نستفيد بهذا التجديد .

وتلك هى المشكلة الكبرى .

تلك هى مشكلة المحافظة والابتكار أو مشكلة الرجعية والتطرف أو مشكلة التقاليد والحرية فليست هى بالأمر اليسير الذى يعالج بكلمات وليس نجاح الثقافة فى علاجها بالأمل المحقق فى زمن قريب ، ولعله لا يتحقق أبدًا على طول الأزمان والأدهار . بل لعل تحقيقه على وجه التمام أقرب إلى الإضرار منه إلى الإفادة ، لأن الحياة الإنسانية لا تصلح بغير اختلاف دائم بين مزاج المحافظة ومزاج التجديد فربما كان هذان المزاجان قائمين فى البنية الواحدة فضلًا عن اختلاف الأفراد واختلاف الأحزاب واختلاف الأمم والأجناس .

* * *

وعلى هذا النحو يمكن أن نقول إن المصلحة الإنسانية لا تتحقق باستحياء كل ذرة فى أبداننا ونفوسنا من ذرات الحس والحركة والتفكير .

فهل من الميسور مثلًا أن يستحيى الإنسان كل عناصر حياته حتى يستخدم أصابع رجله كما استخدمها ذلك الأكتع القطيع ؟ ويستخدم حركات أعضائه على مثال من الضبط والدقة يشبه الضبط والدقة فى حركات لاعب البليار ؟

ذلك غير ميسور .

وهبوه كان ميسورًا لكل إنسان فلا شك أن المجهود الذى يبذل فيه أكبر جدًّا من الفائدة التى تعود منه !

ويبدو لنا أن الإنسان الذى يحاول ذلك كالرجل الذى يشترى جميع أوراق النصيب ليضمن الربح فى جميع الأوراق : هو خاسر وليس برابح ، وضمانه هنا أشبه شىء بالضياع وقلة الضمان .

إنما الثقافة المثلى أن يبذل كل منا المجهود الذى يلائمه فى استحياء وظائف حياته ، والحد الصالح لتقدير هذا المجهود هو ألا يكلفنا أغلى مما يعطينا . فيشغل العقل مثلاً لاستحياء أصبع ، أو يستغرق الملكات كلها فى ملكة واحدة . أما إذا كانت الأصبع مثلاً أصبع موسيقار أو أصبع فنان رسام فشغل العقل بها أقرب إلى النفع والتحصيل لا إلى الخسارة والتفريط .

وصفوة القول أن الثقافة هى استحياء عناصر الحياة جميعًا ولكننا نستحييها بالمجهود الذى يلائمها فلا نزيد فى بذله عن القصد النافع والقدر الصالح ، ولا ننسى الفوارق بين الملكات فى تقدير هذا المجهود .

ولست أزعم أننى حللت معضلة الثقافة بهذا الحديث العاجل الذى ألم بها إلمام العابر السريع بالخيال البعيد ، ولكننى عرضت على حضراتكم فى شأن الثقافة لمحات صالحة للاختلاف أو صالحة للاتفاق . فلا فرق بين اختلاف العقول واتفاقها فى شأن

الثقافة ، لأن الثقافة هى تمكين العقل والنفس من العمل ، وإنهما ليعملان حين يختلفان كما يعملان حين يتفقان .

فإن كنت قد بلغت ما قصدت إليه حقًا فلى أن أطمع منكم فى رد السلام حين أبلغ الختام ، وأقرئكم السلام .

obeikandl.com